

## المتنبى وسر عظمته

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

(تتمة ما نشر في العدد الماضى)

—&gt;&lt;—

إذا قرأ القارىء قول المتنبى :

وخيلة فى جيلين ألقى بها      كما يرى أننا مثلان فى الوهن  
وكلمة فى طريق خفت أعربها      فهتدى لى فلم أقدر على اللحن  
كم مخلص وعلى فى خوض مهلكة

وقنلة قرنت بالدم فى الجبن  
لا يُعجبني مضيا حسن بزته      وهل تروق دفيناً جودة الكفن  
أحس بما تدعو الحياة إليه من تقييد النفس بقيود التجانس  
حتى ولو كان فيها قهر أنبل عواطفها ونوازعها ، وأحس بالمركة  
التي تدور فى النفس بين زعامها من رضاء وإباء وتسليم وثورة ،  
والتذ مشاركة الشاعر فى تلك المركة النفسية حتى ولو كانت  
المشاركة بالعقل الباطن والقراءة بالعقل الظاهر . وهو يحس  
هذا الإحساس إذا قرأ قوله :

واحتمال الأذى ورؤية جانيه      ه غداء تضوى به الأجسام  
ذل من يغبط الذليل بعيش      رب عيش أخف منه الحمام  
كل حلم أنى بغير اقتدار      حجة لاجئ إليها اللثام  
من يهن يسهل الهوان عليه      ما لجرح بميت إيلام  
وهو أيضاً يضع نفسه موضع نفس الشاعر فى تلك الرحلة  
النفسية التي يلتذها بالقراءة إذا قرأ قوله :

وما أنا منهم بالعيش فيهم      ولكن معدن الذهب الرغام  
خيلك أنت لا من قلت خلى      وإن كثر التجمل والكلام  
ويزداد اعتداد المتنبى بنفسه ، فلا يزداد القارىء إلا لذة ببيانه  
عند ما يقرأ قوله :

ما مضى بأرض نخلة إلا      كقسام المسيح بين اليهود  
عش عزيزاً أومت وأنت كريم      بين طمن القنا وخفق البتود  
واطلب المز فى لظى ودع الذل      ل ولو كان فى جنان الخلود  
أنا فى أمة تداركها إلا      ه غريب كصالح فى ثمود  
وكذلك عندما يقرأ قوله :  
ومن جاهل بى وهو يجمل جهله      ويجهل على أنه ربي جاهل

ويجهل أنى مالك الأرض مُسرر      وأنى على ظهر السباكين راجل  
تحقر عندى همتى كل مطرب      ويقصر فى عيني الذى المتناول  
غثاة عيشى أن تفت كرامتى      وليس بث أن تفت المآكل  
والبيت الأول يدل على تفكير طويل فى أنواع جهل النفوس  
بالنفوس، وهو موضوع عميق كمن الحياة، ومجاهل أعماق النفس  
والحياة كمجاهل أعماق المحيط . وكذلك إذا قرأ أبيات المتنبى  
التي يخاطب بها أسد الفرائس ويدعوها فيها إلى محالفة ، سار  
القارىء فى رحلة نفسية خيالية فى عالم البيان الشعرى ، حيث يود  
الشاعر أن يؤلف الوحش وأن تألفه ، كما حدثوا عن الشنفرى  
الشاعر . وإذا قرأ القارىء قول المتنبى :

عدوى كل شئ فىك حتى      نلت الأكم موغرة الصدور  
فلو أنى حدثت على نفيس      لجدت به لدى الجدد المشور  
ولكنى حدثت على حياتى      وما خير الحياة بلا سرور  
كان قد بلغ من تلك الرحلة النفسية قفراً موحشاً تختلط فيه  
الحقيقة بالخيال فى نفس بلغت من النفرة من الناس والشك فيهم  
مبلغاً يجعلها تشك فى الجماد ، ويخاله موغرة الصدر كالتاس ، وهذه  
حالة حقيقية فى النفس ، وإن اختلطت فيها الحقيقة بالخيال ، وهي  
من الحالات النفسية التي يجيد المتنبى وصفها كما قال :

ومن صحب الدنيا طويلاً تقلبت      على عينه حتى يرى صدقها كذباً  
أرى كلنا بينى الحياة لنفسه      حريصاً عليها مستهماً بها صباً  
ويختلف الرزقان والفعل واحد      إلى أن ترى إحسان هذا لذائباً  
ويتبع القارىء الشاعر فى رحلة التجارب النفسية حيث يقول :

فلا تنك الليالى إن أيدىها      إذا ضربن كسرن النبع بالغرب  
ولا يعن عدواً أنت قاهره      فإنهن يصدن الصقر بالغرب  
وإن سررن بحجوب فجمن به      وقد أتيتك فى الحالين بالعجب  
وربما احتسب الإنسان غايتها      وفاجأه بأمر غير محتسب  
وما قضى أحد منها لسانته      ولا انتهى أرب إلا إلى أرب

والبيت الأخير يعبر عن سر التعلق بالحياة ؛ فليس سر التعلق  
بها لسعادتها وكال مسراتها ، بل قد يتعلق بها أشد التعلق  
من قلت مسراته فيها ، وإنما يكون الحرص عليها كلما وجد المرء  
سبيلاً لنشدها المطالب والمآرب حتى ولو لم يسعد بها . فالحرص  
على الحياة موجود ما دام المرء ينتشى فيها بالسلى والطلب ،

إذا لم تدرك ما تَمَنَّتْ فيسلي نفسه ويسلي القارىء معه بقوله :  
ما كل ما يمتنى المرء يدركه تجرى الرياح بما لا تشتهي السفن  
ويعلم أن الظلم في النفوس صفة عامة إذا خفيت فإنما نحن  
لسبب فيقول :

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلملة لا يظلم  
والذل يظهر في الدليل مودة وأود منه لمن يود الأرقم  
ومن العداوة ما ينالك نفعه ومن الصداقة ما يضر ويؤلم  
وهذه الحكم العديدة وأمثالها في شعر المتنبي ليست من الشعر

التعليمي أو الوعظي الذي يصنعه المرء وهو ناعم البال قرير العين  
بارد العاطفة وهو جالس إلى مكتبته يتأمل فيما تصف به الكتب  
والدفاتر أوجه الحياة وأخلاق النفوس فيها ، ولكنه تأمل المحترَب  
المجرب ، فهو شعر التأمل الذي تغرى به العاطفة لا شعر التأمل

الذي يغرى به العقل في دعته أو مبادله أو عند مباحاته بالعلم  
ومفاخرته بالعرفان ، فهو شعر حكمة يُصَرُّ الشاعر فيها نفسه  
ويذكرها كي تتحمل الحياة بمعرفتها الحياة ، وتتحمل الناس  
بمعرفتها أخلاق الناس . ومن كان شديد الاعتداد بنفسه والاعتزاز

بها كالمتنبي كان في حاجة إلى هذه التبصرة والتذكرة بسبب  
ما يجشم الشاعر نفسه من معاناة الحياة والناس معاناة فوق معاناة  
التنوع التي لا بد منها . فهذا الاعتداد بنفسه بما يفيض به من

حنكة وخبرة وأنعام وبيان وآلام وآمال ، هو سر نبوغ المتنبي  
وسر شهرته وتعلق الناس بشعره كما ذكرنا ، وهو سر قوة شعره .  
وهذه القوة هي فيض ينمر كل باب من أبواب شعره من مدح  
أو وصف أو عتاب أو رثاء . ومن أجل ذلك تبدو حكمة الحنكة  
في شعره مختلطة بالدح أو العتاب أو الوصف أو الدم ، ففي قصيدته  
التي يصف فيها الأسد ويقول :

في وحدة الرهبان إلا أنه لا يعرف التحريم والتحليلا  
ويستجمع كل معاني الوصف الرائعة ، إذ تراه يورد الحكمة  
كما في قوله :

أَنفُ الكرم من الدينثة تارك في عينه العدد الكثير قليلا

وفي قصيدة أخرى بينما هو يمدح المدوح إذ تراه يقول :

أُلفُ هذا الهواء أوقع في الأذن فس إن الحكام مُمرُّ الخذاق

وإن لم يُؤدَّ السعى إلى فوز وسعادة . ويستمر القارىء متابعا  
للمتنبي في رحلته النفسية في عالم التجارب وآلامها كما في القصيدة  
التي يقول في مطلعها : ( كفى بك داء أن ترى الموت شافيا ) .  
ويماود وصفها في القصيدة التي مطلعها : ( أود من الأيام ما لا توده )  
وفي القصيدة التي مطلعها : ( فراق ومن فارقت غير مذموم ) والتي  
يقول فيها :

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونهُ وصدَّقَ ما يعتاده من توهم  
وعادى مُحِبِّهِ بقول عدائه وأصبح في ليل من الشك مظلم  
ويماود وصف آلامه وآماله وخيبته وتجاربه في قصيدة :  
( بم التملل لا أهل ولا وطن ) . وفي قصيدة : ( أغالب فيك  
الشوق والشوق أغلب ) . وفي قصيدة : ( صحب الناس قبلنا  
ذا الزمانا ) . وهو يحس فيها بضالة مطالب الحياة بالرغم من إقبال  
نفسه عليها فيقول :

وصراد النفوس أصغر من أن تتعادى فيه وأن تتفانى  
كل ما لم يكن من الصعب الأذ فس سهل فيها إذا هو كانا  
وإذا لم يكن من الموت بدئ فمن العجز أن تكون جيانا  
وتراه يصف كيف أن نفسه قد تَهَرُّ على التخلق بصفات  
الحياة من مدهانة وشك ، فيقول :

ولما صار ود الناس خبا جزيت على ابتسام بائسام

وصرت أشك فيمن أصطفيه لعلني أنه بعض الأنام

إلى أن يقول :

ولم أر في عيوب الناس شيئا كنعق القادرين على التمام

ويعود إلى وصف ما علمته الحياة من سوء الظن فيقول :

توهم القوم أن العجز قرَبنا وفي التوهم ما يدعو إلى التهم

ولم ترل قلة الإنصاف قاطمة بين الرجال وإن كانوا ذوي رحم

هونٌ على بصر ما شق منظره فأنما يقظت العين كالحلم

ولا تشك إلى خلق قد شتمته شكوى الجريح إلى الغربان والرحم

ثم هو بالرغم من شكواه يعرف أن للمعالي التي ينشدها حننا

لا بد أن يؤديه فيقول :

تريدن لقيان المعالي رخيصة ولا بددون الشهد من إر النحل

ويعلم أنه من البث أن يُمَسَّى المرء نفسه وأن تَمَنِّيهِ

وفي قصيدة أخرى يقول :

لعل عتبك محمود عواقبه فربما صحت الأجسام بالعلل  
وفي قصيدة أخرى من قصائد المدح يقول :

إنما لقي زمن ترك التبيح به من أكثر الناس إحسان وإجمال  
فأصبح منتهى ما يطعم فيه الطامع في خير الناس أن يحصل  
على خيرهم السلبى ، أى امتناعهم عن الشراكعة الامتناع عن العمل  
عمل يشكرون عليه . وكذلك يورد الحكمة في قصائد المدح  
الأخرى مثل قصيدة ( لكل امرء من دهره ما تعودا ) التى  
يقول فيها :

إذا أتت أكرمت الكريم ملكته

وإن أتت أكرمت اللئيم تمردا

وكذلك يصنع في قصيدة ( على قدر أهل العزم تأتي العزائم )  
وقصيدة ( الرأى قبل شجاعة الشجمان ) . فقصيدة مدحه ليست  
في المنالاة المزدولة كما في بعض قوله وإن اشتهر بها ، ولكن قيمته  
فما يخالطه من حنكة وخبرة إما بالأخلاق والحياة عامة ، وإما بالصفات  
المرغوب فيها التى يود كل تمدوح أن تنسب إليه . وكذلك يورد  
الحكمة في قصائد الاستعطاف أو التوفيق أو العتاب كقصيدة  
( إن يكن صردى الرزئة فضلاً ) وقصيدة ( حسم الصلح ما اشتهته  
الأعداى ) وقصيدة العتاب الرائعة الفخمة التى ينف فيها فى عتاب  
سيف الدولة بارة وتارة يبلغ غاية الرقة كما فى قوله فيها :

إن كان سرِّكم ما قال حسدنا فما لجرخ إذا أرضاكم ألم  
ويورد الحكمة أيضاً فى قصيدة ( بفيرك راعياً عبث الدئاب )

فيمدح ويستعطف ويورد الحكمة ، وفيها يقول :

وجرم جره سفهاء قوم وحل بغير جاريمه العقاب  
وكم ذنب مؤلده دلال وكم بُعد مؤلده اقتراب  
ويورد الحكمة أيضاً فى قصائد الرثاء والتعزية وله فيها قصائد  
شائعة مثل رثائه لعمه عضد الدولة ورثائه أم سيف الدولة وأخته  
ومملوكه يماك ورثائه اللئيمى لجدته ورثائه لأبي شجاع فاتك ، وفى رثاء  
عمة عضد الدولة يقول :

يموت راعى الضأن فى جهله ميتة جالينوس فى طبه

وربما زاد على عمره وزاد فى الأمن على سره

وفى رثاء أم سيف الدولة يقول :

وصرت إذا أصابتنى سهام تكسرت النصال على النصال

وفى رثاء مملوك سيف الدولة يقول :

وأوفى حياة الفارين لصاحب حياة امرئ خاتته بعد مشيد  
إذا استقبلت نفس الكريم مصابه

بجث ثنت فاستدبرته بطيب

وفى رثاء جدته الرائع يصف ما لاقاه فى سبيل تجسيم نفسه

عظام المسامى فترداد لذة القارى فى قراءته . والمتنبى إذا أراد  
الوصف أجاد كما فى وصف الأسد وكما فى وصف شمع بوان ونبانة  
الذى يقول فيه وهو من أبدع الوصف :

مفانى الشيب طيباً فى المنانى بمنزلة الربيع من الزمان  
ويصف الخليل كما فى قوله ( وما الخليل إلا كالصديق قليلة الخ )

ويصف الحروب . وليس إقلاقه من وصف مظاهر الكون والطبيعة  
من مجز ، بل لأن بصر بصيرته كان موجهاً إلى دخائل نفسه ونفوس  
الناس وأخلاقهم فى الحياة أكثر مما كان موجهاً إلى مظاهر  
المريثيات وله فى الغزل بالرغم من ذلك أشياء تستجاد وتستحب  
مثل قوله :

زودينا من حسن وجهك مادام فحسن الوجوه حال تحول

وصلينا نصلك فى هذه الدنا يا فان المقام فيها قليل  
وقوله :

إذا كان شم الروح أدنى إليكم فلا برحتى روضة وقبول

ألم يرهذا الليل عينيك رؤيتي فتظهر فيه رقة وتحول

فسحر شعر اللئيمى هو سحر جازية الشخصية المتدة بنفسها  
وسحر ما تختبر من الحياة .

ولا نعى بسحر الاعتداد بالنفس أن الناس لا يقاومونه .  
هم يقاومونه بكل وسيلة فى أول الأمر ، وبعضهم يظل يقاومه  
حتى مع التأثر به . بل إن بعضهم تدل شدة مقاومتهم له على شدة  
التأثر به . ففى بعض سجايا النفوس قد يظهر التأثر بالإنسان ،  
أو بالشئ بمظهر المقاومة . ولعل أظهر هذه الظاهرة فى العلاقات  
الزوجية ، ولكنها موجودة فى جميع علاقات الناس بعضهم ببعض ،

وقد لا تكون المقاومة دليلاً على  
التأثر . بل قد تكون دليلاً على  
قلة التأثر أو انتفائه . ولعل  
الظاهرة أساسها واحد في  
الحالتين ، وأساسها هو : دفاع  
كل نفس في الحياة عن كيانها  
ومميزاتها وخصائصها ؛ وكلما  
كان تأثرها بخصائص غيرها  
وكيانها أعظم ، كانت المقاومة  
أزيم في بعض الحالات وفي  
بعض النفوس ، إما صيانة للبقية  
الباقية من استقلالها ، وإما لكي  
تعدر نفسها لدى نفسها في  
استسلامها لسحر الاعتداد  
بالنفس سراً بمقاومته جهراً  
فترتاح إلى هذا العذر وتحبب  
أنها قد صانت به كرامة  
استقلالها . ولكن إذا كان  
الاعتداد بالنفس عظيماً ، وكان  
مقرونًا بقوة المبقرية أو البيان  
والفضاحة أو الخلابة أو العصبية  
المنصرة له تمكن على الزمن من  
تحويل الشيء الكثير من  
المقاومة إلى إعجاب ، كالإعجاب  
الذي ناله من النفوس التي  
ناصرته من أول الأمر بسبب  
لذتها في الاستسلام أو لذتها في  
رؤية اعتدادها بنفسها مقدسًا في  
شخص عظيم . وتغلب الاعتداد  
بالنفس على المقاومة يكون شبيهاً  
بتغلب التماس على اليقظة . وقد  
لاقى النبي أشد المقاومة ،

## من رسالة النبي

إني آنجب دائماً رؤية خروف العيد حياً قبل العيد ،  
وآنحاشي أن أدنونه أو الأطفه أو أعقد بيني وبينه أو أصر  
حجة أو مودة ، خشية أن تمضي ساعات فإذا هو أمامي مشوباً  
في طبق ، ينظر إليّ بعينين يسيل منهما الدهن والزبد ،  
نظرات كلها ازدياء لما تكشف له من خلقنا الإنساني المنطوي  
على الحياة والغدر ! إني آنجيل دائماً معاني هذه النظرات  
المهابة المميقة التي تنبعث من عيون هذه الحيوانات الوداعة  
الأليفة . إنها لأبلغ في إنسانيتها أحياناً من بعض نظراتنا  
الآدمية التي يشع منها بريق جشع حيواني ونهم مفترس  
قد لا تعرفه غير الضواري والكواسر !

إني لأنجيل الحديث الذي يمكن أن يدور بيني وبين  
هذا الخروف لو أنه منح القدرة على الكلام :

— لماذا صنعتني بهذا ؟

— لمجدك الأبدى

— مجدى الأبدى ! هذا الذبح والسليخ والحرق مرة  
في كل عام على مدى الدهور والأيام !

— نعم ، هو مجدك الذي ينبغي أن تتيه به وتفخر  
وترهى على غيرك من الحيوان ! إن دمك يراق من أجل  
فكرة ، وحياتك تضحي في سبيل عقيدة !

— آه للإنسان ما أرفع في لباس صغير الفم رائحة الشيب !

— نعم ، هنا مفتاح سمونا وسر عظمتنا !

— هنا الفرق بيننا وبينكم

— نعم ، كل الفرق

— إن الترائث السفلى ما زالت هي التاموس الأعظم  
لنا ولكم . ولم تستطعوا مع قدرتكم وقوتكم أن تخرجوا  
عن نطاقها قيد أعلة ...

— ولن نخرج

— إنما كل عملكم أن تضموا على حقائقها العارية  
رداء ، كما وضعتم على أجسامكم العارية لباساً . نحن المارون  
جسداً وروحاً ، وأنتم الكاسون جسداً وروحاً . أما بعد  
ذلك فلا اختلاف بيننا وبينكم .

— هذا صحيح يا سيدي الخروف ! توفيق الحكيم

ولكن شدة اعتداده بنفسه  
تمكنت من تحويل المقاومة على  
مر الزمن إلى إعجاب كثير  
لقد كنا في عهد الصغر  
إذا قرأنا للمتنبى قوله :

من لورآني ماء مات من ظها

ولو عرضت له في النوم لم ينم  
تحميلناه مخلوقاً من مخلوقات  
الخيال في القصص الخرافية .

ونفره العريض في هذا البيت وفي  
أمثاله كان من خواطر العظمة  
التي رآها لنفسه ، ولكننا لم ننتأ  
أن نعد كل أحواله في القتال وإرافة

السماء من قبيل خواطر السوء  
التي تمر بخاطر كل إنسان ، لأن  
الرجل كان محارباً فسالاً كما

كان متخيلاً قوياً . وإذا صدقت  
قصة مقتله التي قيل فيها إنه فر  
طالباً النجاة ممن أغاروا عليه  
حتى ذكره مذكراً بقوله :

الجيل والليل والبيداء تعرفني

والسيف والرمح والقرطاس والقلم

وذكره بأن من يقول هذا

القول لا بد أن يكون فعله

كقوله ، فعاد للقتال حتى قتل

أقول إذا صدقت هذه

القصة : كان الاعتداد بالنفس

الذي قتله ، هو الاعتداد بالنفس

الذي خلده عظمته وزادها .

وهو أيضاً كذلك وإن لم

تصدق هذه القصة

عبد الرمي شكري